مجلة المعيار ISSN: 2588-2384
مجلد: 22 عدد: 44 السنة: 2018

الظاهرة القرآنية في فكر مالك بن نبي

أسماء بن سبتي
طالبة دكتوراه كلية العلوم الاسلامية جامعة باتنة1
asmabensebti@yahoo.com

تاريخ الوصول:2017/07/19/ القبول:2018/05/14 / النشر على الخط: 2018/06/15
Received:19/07/2017 / Accepted: 14L05/2018 / Published online: 15/06/2018

ملخص المقال : سعى المفكر ابن نبي جاهدا لإثبات أصالة الظاهرة القرآنية، وعلوية مصدرها، فدعا إلى إخضاع القرآن كوثيقة مدونة للنقد، وكذا تمحيص سيرة متلقي الوحي محمدا النبي صلى الله عليه ... فعمد إلى تحليل ظاهرة النبوة بإجلاء سياجها ومقوماتها، وإثبات أنها ظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات البشرية وأنها اصطفاء مباشر من الله، يعد إقرار عقيدة التوحيد سمة وفيصلا في مجموعها، كما سلط ابن نبي الضوء على شتى أصناف إعجاز القرآن منها اللغوي والأدبي وكذا العلمي والاجتماعي والتربوي .. لاعتقاده أن كل ذلك إنما يعزز مكانة القرآن بين المصادر والوثائق الدينية المدونة والتاريخية، ويبرز أصالة الإسلام وعقيدة التوحيد.

الكلمات المفتاحية: الظاهرة القرآنية؛ فكر؛ مالك بن نبي

Abstract:
Strove thinker (**MALEK BEN NABI**) to prove the authenticity of the Quran and altitude, it called to subdue the Qur'aan to criticism and also scrutinized biography (Muhammad the Prophet peace be upon him). It analysed the phenomenon of prophecy shows characteristics, establish an external and independent phenomenon with Mohammed, and they chose directly from God, Underlying oneness .As language and Quran miracles to literary, scientific, social and educational role. The belief that all great Quran Book consolidates and highlights the originality of Islam and the doctrine of reunification.

Key words: ***Quranic phenomenon; thought; Malik bin Nabi***

مقدمة

إن مالك بن نبي (1905-1973م)1 واحد من أولئك المفكرين الأفذاذ الذين طمحوا إلى رفع همة الأمة وإعادة أمجاد الحضارة الإسلامية بكل ما أوتوا من قوة، كما كان نفض الغبار عن التراث الإسلامي بالغ همهم واهتمامهم؛ الأمر الذي تجلى في سائر كتبه ومنشوراته، وكتابه الموسوم بالظاهرة القرآنية من الكتب الفكرية النادرة لما احتواه من تحليلات دقيقة وحلول ناجعة لبعث الحياة في التراث الإسلامي والعمل الفكري المسلم، فجاء الكتاب تحفة فنية علمية بالفعل، أفرده من بين سائر كتبه لدراسة الظاهرة القرآنية وقراءة جديدة للقرآن الكريم، بالاستفادة مما توصلت إليه العلوم اللغوية والإنسانية المعاصرة، فدعا إلى ضرورة إعمال المناهج الحديثة والأساليب العصرية عوض العكوف على نهج المؤرخين والمفسرين القدامى، ومنه ضرورة التجديد في تفسير القرآن الكريم وإعجازه، وفهمه في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي وتماشيا مع الظروف التي يمر بها المسلم اليوم والضرورات التي يواجهها...

وهدف مالك بن نبي من دراسة الظاهرة القرآنية هو التحقق من المصدر العلوي للقرآن الكريم، فكانت المسألة هي البحث عن المصدر الحقيقي للقرآن، ومعرفة ما إذا كان يمكن أن يكون قد استخرج من علم بشر أو إدراكه، أم أن هنالك أسبابا لا يمكن دفعها تحدو للاعتقاد بمصدره الإلهي .

وقد سعى مالك بن نبي إلى إثبات مصدر القرآن من خلال وجوه وعناصر عدة كإثبات أصالة النزعة والظاهرة الدينية، ودورية الحركة النبوية، وبحث المصادر، والتعمق في دراسة الذات المحمدية وسيرتها، والكشف عن ظاهرة الوحي، ومجاز القرآن وإعجازه وعلاقته مع الكتاب المقدس... وغيرها من اللمعات الذكية والدقيقة التي تجلي مصدر الظاهرة القرآنية، وتعمق فهم القارئ وفكرة مما يجعله يحرك لسانه طواعية قائلا : " أن القرآن حقا هو كلام الله"، ولنا أن نتتبع كيف عالج مالك بن نبي كل ذلك ...

أولا : أصالة الظاهرة الدينية

الظاهرة هي الحدث الذي يتكرر في الظروف نفسها، مع النتائج نفسها، فإلى أي حد تعد ظاهرة التدين عريقة في القدم؟ هل سبقت الحضارات المادية أم تأخرت عنها في الوجود؟ أم اقترنت بها ؟.. جاء في معجم لاروس للقرن العشرين : "إن الغريزة الدينية مشتركة بين الأجناس البشرية حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وأن الإهتمام بالمعنى الإلهي، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية"2 .

وقد عمد ابن نبي إلى إثبات أصالة النزعة الدينية عند الجنس البشري؛ بقوله : "إذ كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي وجد سطورا من الفكرة الدينية.. وقد سارت

---

1 - مالك بن نبي : (1905- 1973م) ولد بقسنطينة شرق الجزائر، من أعلام الفكر الإسلامي وأحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين الذين نبهوا إلى ضرورة العناية بمشكلات الحضارة، فجاءت كتبه الظاهرة القرآنية 1946م، شروط النهضة 1948م، وجهة العالم الإسلامي 1954م، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي 1970م...

2 - ،LA rousse du xxeme, siecle, article : Religion .

هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري إلى عهد المعابد الفخمة جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه، فولدت الحضارات في ظل المعابد كمعبد سليمان والكعبة"[1] فما من حضارة أو معلم أو بناء حضاري إلا انبثق عن عقيدة أو فكرة دينية، وليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية..والأمر سيان بالنسبة للحضارة الإسلامية أو المسيحية الغربية ومنه فإن فكرة التدين فكرة مشاعة أقدم من كل حضارة مادية[2].

وبالنسبة لقوانين الأمم الحديثة فما هي إلا قوانين لاهوتية في أساسها، أما ما يطلقون عليه قانونهم المدني فإنه ديني في جوهره، فالشيوعية ليست مذهبا ماديا فقط، بل في جوهرها ما يفيد التوجه الروحاني.. ومنه فتردد المشكلة الغيبية هكذا بانتظام على الضمير الإنساني في جميع مراحل تطوره هو في حد ذاته مشكلة أراد علم الاجتماع حلها حين وصف الإنسان بأنه في أصله حيوان ديني، ولكن هنا منبع السؤال: هل الإنسان حيوان ديني بشكل فطري غريزي، أو أنه اكتسب هذه الصفة؟[3]

برع مالك بن نبي في الموازنة بين المذهب الغيبي؛ الذي يعتبر الضمير الديني للإنسان ظاهرة أصلية في طبيعته والمذهب المادي، ليصل بالبرهان العلمي إلى ضعف هذا الأخير الذي يعد الدين مجرد عارض تاريخي للثقافة الإنسانية، لتعارضه مع المبدأ الأساسي له[4] في مقابل اتساق ووضوح المذهب الغيبي في تفسير الظواهر وإرجاع كل شيء إلى الله، خالق ومدبر الكون وسبب أول ينبثق عنه كل موجود[5]، ومع إثبات أصالة الظاهرة الدينية في تاريخ الإنسانية فإن هناك العديد من الظواهر المصاحبة لها، شهد الزمن بتواجدها وتكرارها ومن أهم هذه الآثار ظاهرة النبوة أو الحركة النبوية .

ثانيا : الحركة النبوية

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (سورة الأحقاف الآية 9) فهي تحمل إشارة خفية إلى أن تعاقب الشيء في سلسلة معينة تدعم حقيقته بوصفه ظاهرة بالمعنى الذي يسبغه التحديد العلمي لهذه الكلمة[6].. فمنذ إبراهيم عليه السلام تتابع أفراد مدفوعين بقوة لا تقاوم، جاؤوا يخاطبون الناس باسم حقيقة مطلقة يقولون أنهم يعرفونها معرفة شخصية وخاصة بوسيلة سرية هي الوحي، ويقول هؤلاء الرجال أنهم مرسلون من الله، ليبلغوا كلمته إلى البشر؛ هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يسمعونها مباشرة.[7]

والتكرر الملاحظ لظاهرة النبوة في ظل بعض الشروط يبرهن على الوجود العام للظاهرة بطريقة علمية، ويبقى أن نبحث في ماهية هذا التكرار لكي يستخلص من صفاته الخاصة القانون العام الذي يمكن أن يسيطر على الظاهرة في جملتها، ويرى مالك بن

1- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، ط1، بيروت : دار الفكر، 2013م، ص69 .

2 – ينظر مالك بن نبي، شروط النهضة، ط9، سوريا : دار الفكر، 2009م، ص48- 56 ، وينظر محمد عبد الله دراز، الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)، الكويت : دار القلم، ص82 .

3 – ينظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص69، ومالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص60.

4 – المذهب المادي :مبدأه الأساسي أن المادة هي العلة الأولى لذاتها وهي نقطة البدء في الظواهر الطبيعية.

5 – ينظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 73- 81 .

6- المصدر نفسه، ص64 .

7- ينظر المصدر نفسه، ص86

نبي أن مبدأ النبوة يفرض نفسه بفضل شاهده الوحيد النبي – بوصفه ظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات الإنسانية التي تعبر عنه، فأحوال الأنبياء من أقوال وأفعال هي الشهادة الأولى التي يجدر أن تختبر على صدق هؤلاء الأنبياء أو كذبهم ما داموا هم من أنبأ عن هذه الظاهرة التي يعيشونها فيقول : " فمن الواجب في المقام الأول أن نلجأ إلى هذه الشهادة لكي تثبت القيمة التاريخية للوقائع التي نخضعها لنقدها، ثم يبقى علينا أن نحلل مجموع هذه الوقائع في ضوء العقل المتحرر من ربقة الشك المطلق الذي لا هدف له "[1]، ومما لا مجال للشك فيه واقعا أن الأنبياء إنما يمثلون الإنسان في أسمى حالات كماله البشري والخلقي والعقلي[2]، فالنبي ذاتا إنسانية فريدة من نوعها ومصطفاة من الله لأداء رسالته إلى عباده وإرشادهم إلى سواء السبيل .

ونظرا لهذا الاصطفاء ولمرتبة النبوة فقد تملق لها أدعياء كثيرون، يشار في هذا إلى أدعياء بني إسرائيل على وجه الخصوص؛ فقد تكاثر الكهان والعرافون وأهل الكشف والخوارق في بيت المقدس وكانوا موضع احترام الشعب أو خوفه، وقد أطلق على هؤلاء جميعا اسم الأنبياء بل إن إسرائيل لم تزدحم بالأنبياء الحقيقيين قدر ازدحامها بذلك الصنف الضليل[3]، ومنه فلابد من ضرورة التمييز بين النبي وغيره من مدعي النبوة من عراف وكهان ومحترفين ...ولكن هل هناك من معيار حقيقي للتمييز؟

بما أن مالك بن نبي يعد النبي هو الشاهد الأول على الظاهرة فإن أول من يستنطق هاهنا هو النبي ذاته، ومثل ذلك لو أنه أتيح لعلماء الطبيعة أن يحملوا قطعة من الحديد على الكلام عندما تكون معرضة للتأثير المغناطيسي لأسعدهم ذلك دون ريب أن يسألوها عن مجموعة من المعلومات الخاصة بحالتها الباطنية بدلا من أن تتحول معلوماتهم آخر الأمر إلى فروض لا يبرهن عليها الحساب بشكل قاطع، ومع ذلك فإن النبي ذات يمكن أن تحدثنا عن حالتها الداخلية ويمكن أن تبرهن عليها[4] .. وبمثل هذا قال إريك وليام هستون[5]: "لا شك أن مظاهر النبوة الخارجية وما كان من سلوك الأنبياء وانفعالاتهم لهي أقل ما يعتمد عليه في معرفة حقيقة أنبياء الله الكبار".[6]

وأول مظاهر النبوة هو ما تثيره من اضطراب في ذات إنسانية وتدفعها دفعا لا سبيل إلى مقاومته نحو رسالة ما، لا تتضح دوافعها وأهدافها بوصفها حقائق محددة لهذه الذات، ومالك بن نبي يرى أن الأنبياء هم أفراد أرادوا أولا أن يتملصوا طواعية من دعوة النبوة فقاوموا، ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيرا، فمقاومتهم تدل على ذواتهم، وفي هذه الدلائل قرينة قوية للنظرية الموضوعية من الحركة النبوية [7]، فصفة القهر النفسي هي أول خصائص النبوة، وهو قهر يقصي جميع العوامل الأخرى للذات، بإلزام النبي في النهاية بسلوك معين ودائم وكذا الحكم الفذ على أحداث المستقبل، يمليه نوع من القهر الذي ليس له أي أساس منطقي، ومع استمرار مظاهر السلوك النبوية وتماثلها الظاهر والخفي عند جميع الأنبياء.. هذه الصفات الثلاث تبرز موضوعية مبدأ النبوة،

1- المصدر نفسه، ص87

2- المصدر نفسه، ص88

3 – مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص79 .

4 – المصدر نفسه، ص79 .

4 – المصدر نفسه، ص74 .

5- إريك وليام هستون: أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة اكسفورد .

6 Eric William ,Heaton , the old testament prophets, 2nd edition , 2003,

7- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص92

فذات النبي تبدو أنها لا تبرز هنا إلا في مجرد صورة مترجم مرهف الحس، مستمع أحيانا لظاهرة مستمرة تلزمه بقانونها، كما يثبت المجال المغناطيسي اتجاه الإبر الممغنطة[1]، فظاهرة النبوة ظاهرة خارج الذات ومستقلة عنها استقلال المغناطيس عن الإبرة ومما يدعم هذا الرأي، شهادة الأنبياء المباشرة وحدهم، فقد وضعوها بالإجماع خارج كيانهم الشخصي[2].

هذا عن ظاهر سلوك النبي وحالته النفسية، أما عن ما يجيء به الأنبياء فإن النبوة الحقة لا يمكن الحكم عليها إلا بصدق العقيدة التي تقوم على تقرير التوحيد الخالص ووجود الصانع المدبر الحكيم، وطهر السلوك والبذل وغير ذلك من الصفات الكريمة[3] و عند ابن نبي فإن التوحيد قدم لنا برهانه الأسمى على ألسنة الأنبياء، وبذلك أصبح فيصلا في مجموع الظاهرة الدينية[4] فالتركيز على عقيدة التوحيد من المزايا الواضحة، التي تظهر للعيان بكل جلاء ووضوح في دعوات جميع الأنبياء.

ولنستمع إلى القرآن الكريم يخبرنا عن ذلك قائلا : على لسان نوح عليه السلام : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (سورة المؤمنون الآية 23)، والأمر سيان على لسان هود، وعن صالح، وعن شعيب5...عليهم السلام، هذا التواطؤ بين الأنبياء على دعوة التوحيد لأمر يستدعي النقد والتمحيص فعلا.

والواقع أن تتابع ديانات التوحيد دليل يمكن فحصه دائما من الناحية الإعتقادية فحصا يقوم على أساس النقد ويتمثل هذا التتابع في ظهور النبوة وجميع المظاهر الأدبية والروحية التي تصحبها"6، فالأنبياء إنما جاؤوا لدعوة التوحيد، وبالتوحيد يعرف النبي الحق من غيره، وكان الذي جاؤوا به وحيا من الله5، فهؤلاء الرجال يقولون أنهم مرسلون من الله ليبلغوا كلمته إلى البشر، فخصوصية هذا الوحي ومضمونه هما الأمارتان المميزتان المثبتتان لرسالة النبي، هذا إلى جانب أنها هي السمة المميزة للنبوة وهي الحقيقة الجوهرية في مذهب التوحيد وبرهانه الواقعي7 .

ثالثا : بحث المصادر والأصول

امتاز القرآن بميزة فريدة هي أنه ينتقل منذ أربعة عشر قرنا، دون أن يتعرض لأدنى تحريف أو ريب[8]، وهذا على خلاف العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) اللذان لم يثبتا أمام الدراسة النقدية إذ ألقى الشراح المحدثون الكثير من كتبهم وأخبارهم، أما عن القرآن فيشيد مالك بن نبي قائلا : " هذا التحديد الكامل للنص القرآني على عهد النبي نفسه يعد ظاهرة جديرة بالملاحظة من وجهة علم الاجتماع وعلم النفس بخصوص الوسط العربي في العصر المحمدي، فتلك نقطة جوهرية تستحق البحث والوقوف أمامها، هذا التحديد الكامل للنص إنما يؤيد قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (سورة النحل الآية

1 – مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص99 .

2– المصدر نفسه، ص 100

3– أحمد عبد الوهاب، النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، ص17.

4– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص86، وانظر محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، دار الصابوني، 1998م، ص20 .

5 – (سورة الأعراف، الآية65)، (سورة الأعراف الآية 73)، (الأعراف85) .

6– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص86

7– المصدر نفسه، ص86

8– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص103

44)" [1] ولم يكن مالك بن نبي ليأخذ هذا التأييد على أنه تأييد سطحي فحسب، وإنما هو تأييد مؤيد بحقائق الواقع والتاريخ، فكلما كان الوحي يتنزل كانت آيات القرآن تثبت في ذاكرة الرسول وصحابته، وتسجل فورا بأيدي أمناء الوحي، مستخدمين من أجل ذلك كل ما يصلح للكتابة كعظام الكتف، أو قطع الجلد... حتى إذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن محفوظا في الصدور مدونا في الصحف ..."[2].

ومالك بن نبي كمحلل صادق للظاهرة، وناقد دقيق نجده يزيل اللبس تماما عن طريقة جمع القرآن، والموازنة بين آياته، سواء في عهد الخليفة أبي بكر أومن بعده الخليفة عثمان رضي الله عنهما، ويعد الطريقة التي نفدت بها عملية الموازنة حدثا فذا في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية فيشيد بأنه للمرة الأولى تتجلى صفات الطريقة المنهجية في عمل عقلي، كما تتجلى الدقة التي هي الآن وقف على التفكير العلمي، فقد وضعت قاعدة للعمل وطبقت بكل عناية، وهي تفضي بألا يؤخذ بأي مخطوط لا يشهد شخصان على أنه مكتوب ليس من الذاكرة، وإنما بإملاء الرسول ذاته وأنه جزء من التنزيل في صورته النهائية[3] .

وعلى هذا فالقرآن هو الكتاب الديني الوحيد الذي يتمتع بامتياز الصحة التي لا جدال فيها لأنه لم يثر النقد حوله أية مشكلة، سواء أكان ذلك شكلا أم موضوعا، وبناء على ذلك أكد الأستاذ لوبلوا[4] : " أن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر"[5]، فالقرآن وثيقة مطلقة الصحة، وينبه مالك بن نبي إلى ضرورة إدراج بحث المصادر وفحصها كوثائق مدونة أو تاريخية، للدلالة على أصالة الإسلام كما يرتبط ذلك كله بصاحبها، ومن أرسل بها النبي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

رابعا : الرسول (الذات المحمدية)

أخضع مالك بن نبي الذات المحمدية لمقاييس عدة من أجل الإستيثاق العقلي والخلقي لهذه الذات باعتبارها موضوع القضية وشاهدها وقاضيها ومن ثم الحكم عليها مباشرة، ولأجل ذلك عكف على تتبع حياة الرسول كلها من أجل استجلاء حقائق هذه الذات ورسم صورة نفسية لها، وطبيعة الارتباط بينها وبين الظاهرة القرآنية... إلا أنه تجنب تفاصيل السرد والحشو، ولم يأخذ من سيرته صلى الله عليه وسلم إلا ما يخدم موضوعه ويعينه على وضع صورة نفسية للنبي، عكف على تصميمها من خلال مرحلتين؛ عصر ما قبل البعثة وهو يمتد لأربعين سنة، والعصر القرآني وهو يضم كل زمن الوحي .

اقتطف ابن نبي شهادات من طفولة النبي وشبابه، فهو الفتى الذي عاش حتى الثانية عشرة في بيئة عربية وثنية يرعى إبل عمه في ضواحي مكة، يقظ القلب في أعماء الصحراء صاحيا بين السكارى والغافلين يختلط بالفتيان مارا بشهواتهم وأهوائهم دون أن ينزلق فيها، مع أن أحيان الفساد لم تكن قليلة هناك [6]، وقد كان يلقى –ولا شك– في غمار هذا الشباب كثيرا من أصحابه الذين

1- المصدر نفسه، 104

2- المصدر نفسه، ص104

3- المصدر نفسه، ص104

4- المستشرق لويس لوبلوا (1854- 1928) صاحب كتاب (القرآن والتوراة العبرية) .

5 Louis leblois,Le kkoran et la Bible hebraique, L – fiscbbacher, 1887, p 47، وينظر محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي،ط2، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1452هـ، ص115 .

6- ينظر محمد الغزالي، فقه السيرة، الجزائر: دار رحاب، ط5، 1422هـ، 2001م، ص69، وينظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص13.

أصبحوا فيما بعد أبطالا وشهداء في سبيل دعوته، كعمر وعثمان وخالد بن الوليد، وغيرهم ممن أصدروا على محمد آنذاك حكما موجزا ولكنه بليغ أسموه (الأمين)، لقد كان في أعينهم في ذلك العصر الصادق الأمين.. واتخذ مالك بن نبي من هذا الوصف بحد ذاته شهادة تاريخية، إذ يقول: " وهذه الشهادة التاريخية تعطينا تفصيلا ثمينا للصورة النفسية التي نحاول رسمها " .[1]

ثم كان زواجه من خديجة رضي الله عنها- بعدما خبرته زمن أرسلته بمالها إلى الشام تاجرا، فوجدت ضربا آخر من الرجال، تقفه كرامته الفارعة موقف النبل والتجاوز، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها[2] ... ليترك الزواج لنا ضمنا من حيث المبدأ شهادة هامة عن الذات المحمدية وسيرتها التي لم تشهد له بغير الكرامة والعظمة، كما ترك لنا وثيقة قيمة في سيرة النبي، وردت في الخطبة التي ألقاها أبو طالب عمه في خطبة ابن أخيه حسب عادة قريش فقال: " أما بعد فإن محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، وإن كان في المال قلا، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة رغبة ولها فيه مثل ذلك"[3].

هذه السطور تصلنا جيدا بصورة الأمين، وتتفق من كل وجه مع الصورة التاريخية لبطل أعظم ملحمة في التاريخ الديني، وإلى الآن فإن حياة محمد هي حياة عادية في بيئة جاهلية وثنية بمكة، بيئة تزعم الإيمان بإله خالق وفي الوقت نفسه تشرك معه آلهة القبائل العربية وعلى رأسها هبل، اللات والعزى..[4] إلا أن هذا التوحيد الغامض تمسك به بصورته الصافية أصحاب العقول النيرة والنفوس العظيمة ممن سموا آنذاك بالحنفاء، وهم رجال عرفوا بترك الأصنام، والزهد وعكفوا على عبادة الإله الواحد، وقد رأى ابن نبي أن هذه النزعة الحنفية إنما هي من آثار الطابع الإبراهيمي في البيئة الجاهلية، لا تمت بصلة إلى التفكير اليهودي أو المسيحي، بل هو طابع عربي بحت تغلب عليه سمة الصحراء وروحها، أكثر من روح الدير أو الكنيسة..[5]

إن ما ثبت عن سيرته أنه كان يقضي رمضان بغار حراء، ينقطع عن العالمين، وهو في هذا يشبه عقلاء قومه القلائل ممن ازدروا الجاهلية وهجروا وثنيتها، ومحمد على ما هو عليه من أمية وجهل بالقراءة والكتابة لا يمكن حصوله على أية معلومات مكتوبة، إنه ببساطة كان يخلو بنفسه يناجي ربه ويتأمل في ملكوت السماوات والأرض، بعيدا عما تموج به الدنيا من فتن وصخب، كأنه بعقله الخصب وروحه الصافية يتلمس الحق الذي ضاع وسط أدران الجاهلية العمياء ..إلا أن المؤكد أنه لم يكن ينتظر دعوة أو كان له أمل بأن يقوم بدعوة وذلك بشهادة القرآن{وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} (سورة القصص الآية 86)6، ذأب محمد على عهده من حياة التأمل والتحنث، وها هي سِنه تصعد نحو الأربعين، ليكشف الستار عن أمر جلل هو الظاهرة القرآنية، وليبدأ عصر جديد هو العصر القرآني .

1- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص114.

2- ينظر محمد الغزالي، مصدر سابق، ص76 ومالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص114.

3- كذا في هامش الكامل لابن الأثير ج2، ص25، وقد وردت بصيغة أخرى في السيرة الحلبية ج1، ص 139 .

4 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 116، 117 .

5- ينظر المصدر نفسه، ص117.

6 - ينظر المصدر نفسه، ص118- 119 .

في غار حراء كان محمد عليه الصلاة والسلام يتعبد، ويصقل قلبه، وينقي روحه، يقترب من الحق جهده، ويبتعد عن الباطل وسعه حتى صفت روحه وانعكست أشعة الغيوب عن صفحته المجلوة، فأمسى لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح[1]، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس عقلا منهجيا يبحث عن نظرية في الكون واتساقه، ولا ذو فكر مضطرب يبحث عن طمأنينة، فطمأنينته متوافرة لديه دائما، فهو يؤمن بإله واحد هو رب العالمين، وتبرهن وثائق العصر على أن المشكلة الغيبية لم تساور ضميره، فقد كان عنده حلها[2]، ومن ثم نتساءل كيف كان بزوغ الظاهرة القرآنية، وما هي الحالة النفسية للذات المحمدية حينها ؟

ففي حوالي الأربعين وجد النبي نفسه فجأة أمام شك من استشعاره لبعض أشياء غريبة، تمس من قريب مصيره الخاص..لكنه شك بددته خديجة من أول وهلة قائلة : " والله ما يخزيك الله أبدا.." ولا شك أننا نلاحظ أن هذه العبارة التاريخية إنما تعزز الصورة النفسية التي رسمناها عن محمد قبلُ، كما تثبت لنا بطريقة لا تحتمل الجدل فكرة الإله الواحد[3]..

ثم يعود محمد لعزلته بعد تهدئة روعه ليهاجمه الشك من جديد، يدفعه للخروج من غار حراء بحثا عن مخرج، ويكاد يستسلم لفكرته، إلا أن صوتا أسرع إليه : " يا محمد أنت رسول الله حقا "، فيرتعد فزعا ويغمى عليه، ويعود حين يفيق إلى مكة فزعا، ولم يترك محمد عزلته بعدها، بل ها هو يتزود ليعود لحراء، يقضي الليالي ذوات العدد حتى فاجأه المجهول يخاطبه : "اقرأ " ويكرر ثانية وثالثة " اقرأ "... {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} (سورة العلق الآية1-3) ، فكانت هذه الآيات هي البزوغ الأول للظاهرة القرآنية، ليضم بين دفتيها الثلاثة والعشرين عاما الآخرة من حياة النبي4 صلى الله عليه وسلم .

وكأن الأربعين عاما السابقة يوم واحد، وبدأ الوحي صبيحة يوم جديد، فالعقل الجواب الباحث المستفسر أخذ يشيم أنوار الحق، والصدر المحرج المثقل بالارتباك أخذ يحس برد اليقين، وفرحة الأمل، والنقلة الطارئة بعيدة المدى ...إنها النبوة [5]، فتراجعت إليه نفسه، ومر زمن طويل، أكثر من عامين لم ير زائره الغريب ويسمع صوته حتى يئس وأخذ الشك يستولي مرة أخرى على نفسه التواقة لليقين ... فلعله خدع في جوارحه، أو أن تلك القدرة التي تقوده تخلت عنه، فصار يتشوق للوحي ويرتقب مجيئه، إلا أن طاقته أمام وطأته البشرية ناءت حين رن صوت حراء فجأة {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} (سورة المدثر الآية1-3)6، فكانت هذه الأوامر المتتابعة إيذانا ببدء عهد جديد هو عهد اليقظة والتشمير .

إن مفاجأة الوحي للنبي في المرة الأولى، وعناءه وعجزه في المرة الثانية أمام التكليف غير المتوقع ليسجلان حالتان نفسيتان للذات المحمدية؛ فمحمد هنا لم يكن أبدا له أمل القيام بدعوة، بل كان يبحث فقط عن فضل فاته من الوحي الأول، وحتى يأسه مدة فتر فيها الوحي فلأنه كان يبحث فقط عن فضل لامسه من الله، منذ الوحي الأول، وهذا وذاك إنما يؤكدان بصورة قاطعة

1- ينظر محمد الغزالي، فقه السيرة، مصدر سابق، ص85 .

2 - ينظر مالك بن نبي، الظاهر القرآنية، مصدر سابق، 123 .

3- المصدر نفسه، ص 124.

4 - المصدر نفسه، ص 126.

5 - محمد الغزالي، فقه السيرة، مصدر سابق، ص88.

6 - ينظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص126، وينظر محمد الغزالي، فقه السيرة، مصدر سابق، ص90.

استقلال الظاهرة القرآنية عن الذات المحمدية، وإلا لما كان محمد سيعاني لو تأخر عنه الوحي للمرة الثانية، أو أنه سعى بنفسه ليثير ظهور الظاهرة ثانية لو كانت من عنده؛ أي لو كان مصدرها اللاشعور[1].

والنبي بعد هذا يدرك أهمية الظاهرة في إطار حياته الخاصة، وقد عزم على قبول دعوته نهائيا[2]... وظهور الظاهرة القرآنية بتلك الكيفية أول الأمر، وبهذه الشدة على نفس محمد لدليل قاطع على أنها من عند الله، وأن محمد حُمِّلَها تحميلا...شرع محمد يكلم الناس ويعرض عليهم الدين الجديد، وظل يجاهد ويكابد، وظلت قريش في المقابل تنكر وتغالب وتكابر، ولا تتوانى أبدا في إيذاء محمد وتسفيهه، بل وتعزم على قتله مرات ومرات، وفي مثل هذه الظروف توفيت زوجه خديجة، الصدر الحاني العطوف، وقبلها بيسير توفي عمه أبو طالب الذي حماه ومنع كيد قريش عنه دهرا، فآلمه ذلك وغمره حزنا، وتجرأت قريش بعدها على محمد تؤذيه، ومضى للإسلام بمكة قرابة عشرة أعوام، استمر الرسول خلالها مثابرا لا يداخله بأس ولا شك في صدق دعوته إلى أن أذن له بالهجرة للمدينة[3] .

وثق القرآن هذا (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ) (سورة التوبة الآية 40) وأجل ما أسفرت عنه هذه الحادثة هو سكينة النبي، وهو يطمئن رفيقه في هدوء، بينما الخطر والموت يحدق بهما.. مما يؤكد إخلاص النبي المطلق في تلك اللحظات الحاسمة، وأخذ المهاجران طريقهما إلى يثرب موطن الأنصار لتتزين المدينة بعدها باسم طيبة مدينة الرسول، وليبدأ عهد تأسيس الدولة بأسسها التشريعية والدينية والسياسية والعسكرية، عهد يكشف عن عبقرية محمد الفذة ودقته العالية في تقييم الأمور، تبين ذلك في ملاحمه مع قريش، وفي قراراته السياسية الهامة، وآرائه العميقة وتواضعه منقطع النظير، ينير العقول ويهذب النفوس، ويربي الأرواح، و يشحذ الهمم، يعظم الفضيلة، ويحث على الخير، يحمل نفسه ما يلزم أتباعه أو أكثر، وهو في ذلك يستنصر الله دائما مسلما أمره إليه أبدا، يلزم الحقيقة المنزلة ويتمثلها في كل حين، حتى جاءه اليقين يتمتم قائلا : (اللهم في الرفيق الأعلى) لتكتمل الصورة النفسية للذات المحمدية، متناسقة دائما تكمل بعضها بعضا، تلك الذات التي طبعت بالإخلاص المطلق، شهد لها الزمان بذلك[4]، وهي صورة –كما عبر عنها ابن نبي– تطمئن لها النفوس حقا باعتبار الذات المحمدية هي وعاء الوحي بالظاهرة القرآنية، ليتمهد لنا البحث عن كيفية الوحي، ومقام هذه الذات من ظاهرة الوحي .

خامسا : كيفية الوحي

ظاهرة الوحي مادة أساسية في دراسة الظاهرة القرآنية إذ به تمت الظاهرة بالنسبة للذات المحمدية، ومنه نتساءل كيف أدرك الرسول والأنبياء من قبله ظاهرة الوحي؟

اقتناع النبي الشخصي : إن أول مبدأ لدينا هنا هو أن يقين النبي بالوحي كان كاملا مع وثوقه بأن المعرفة الموحى بها غير شخصية، وطارئة وخارجة عن ذاته، وهذه الصفات تتأكد في نظر الذي يتلقى الوحي تأكدا لا يبقى معه ظل من الشك فيما

1- ينظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 128

2 - ينظر المصدر نفسه، ص 129.

3 - ينظر المصدر نفسه، ص 131-132 .

4 - ينظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص135- 142 .

يتصل بموضوعية الظاهرة الموحية[1] وهذا ما يميز الوحي عن المكاشفة أو الوحي النفسي التي تعرف بأنها : "معرفة مباشرة لموضوع قابل للتفكير أو خاض فيه التفكير فعلا"، بينما يأخذ الوحي معنى : " المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير، وأيضا غير قابل للتفكير"[2]كما أن المكاشفة لا تتيح عند صاحبها يقينا كاملا أو احتمالا، ولا يصحبها أية ظاهرة يقينية بصرية أو سمعية أو عصبية، كتقلص العضلات على غرار ما نلحظه في حالة النبي صلى الله عليه وسلم[3] .

ثم يستخلص مالك بن نبي التفسير القرآني لهذه الكلمة من بين قوله تعالى : {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} (سورة ص الآية 69- 70) باعتبار الوحي برهانا في محاجة النبي لخصوم دعوته، وفي آيات أخرى، تأتي الكلمة لأجل تربية النبي الخاصة، وذلك مثلا في الآية : {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ} (سورة آل عمران الآية 44) .

وهنا يورد ابن نبي تعريف الشيخ محمد عبده للوحي4 إلا أنه يرى فيه بعض الغموض فيما يتصل بتفسير اليقين عند النبي؛ إذ أن الوحي فيما إذا لم يكن منتقلا بطريقة محسة مسموعة أو مرئية سيقع في تعريف الوحي تعريفا ذاتيا محضا، فالنبي يكون عندها لا يدري بصفة موضوعية كيف جاءته المعرفة، وهو يجدها في نفسه مع تيقنه بأنها من عند الله، مما يؤدي إلى تناقض واضح يخلع على ظاهرة الوحي كل خصائص المكاشفة5 .

إلا أن مالك بن نبي يستل الفرق هنا قائلا : "ولكن هذه – يقصد المكاشفة – لا تتيح يقينا مرئيا على إدراك ذلك الذي يبدو أنه اليقين المقصود في الآيات التي ورد فيها ذكر الوحي والتي تتصل خاصة بإعداد محمد الشخصي لفهم طبيعة الظاهرة القرآنية "6، فيقين النبي في مصدر المعرفة الموحاة لا يجيء مع الوحي نفسه ولا يؤلف جزء من طبيعته، بل إنه في صورته الكاملة من عمله الشعوري بوصفه رد فعل طبيعي لهذا الشعور إزاء ظاهرة خارجية، مما يجعل الوحي خارج أحوال الفرد النفسية لتكون مهمته الوحيدة أن يصوغ أساسا عقليا ليقينه واقتناعه الشخصي7 .

إن انفراد النبي بكونه الشاهد الوحيد المباشر على الظاهرة يخلع على هذه الحقيقة قيمة استثنائية، واقتناع النبي النهائي بالوحي يعد برهانا مباشرا على الظاهرة القرآنية، ورأى ابن نبي أن هناك مقياسين يدعمان اقتناع النبي الشخصي؛ مقياس ظاهري للتحقق من وقوع الظاهرة، والمقصود به؛ الحالات المصاحبة للوحي، كسماع الصوت، مجيئ الملك وقول (اقرأ) ...والتي تمثل الطابع

1- المصدر نفسه، ص 114.

2 – المصدر نفسه، ص 114.

3 – ينظر المصدر نفسه، ص144 .

4 – محمد عبده : (أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص في نفسه، مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس، وتناسق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتا، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور)(محمد عبده، رسالة التوحيد، القاهرة، ط9، 1357هـ) .

5 – ينظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص146 .

6 – المصدر نفسه، ص 146 .

7 – المصدر نفسه، ص147 .

الخارجي المميز للوحي، وهذا التلازم بين ظاهرة نفسية في أساسها وحالة عصبية معينة هو مما يؤسس الاقتناع لدى النبي على الأقل في بداية دعوته1 .

ويمدنا القرآن بمقياس مكمل هو المقياس العقلي لمناقشتها وتسويغها؛ فالوحي يبين خصائص هذه الدعوة العظمى كما تدل الآية {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} (سورة المزمل الآية 2-3) ويؤكد هذا الاقتناع قوله : {والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} (سورة النجم الآية 21-31)، فالحقيقة العلوية للوحي تفرض نفسها فرضا على العقل الوضعي، فكل ما يراه وما يسمعه وما يشعر به وما يفهمه، يتفق الآن مع حقيقة واضحة تماما في ذهنه وفي عينيه هي الحقيقة القرآنية2 .

ويزداد إدراك النبي العقلي رسوخا كلما تتابع الوحي بآياته البليغة، والهوة تزداد عمقا بين ضنون الإنسان وما يجري على اللسان من حقائق تاريخية، كونية واجتماعية.. لم يسبق أن سجلت في صفحة معارفه أو معارف عصره، ومعالجة الاقتناع الشخصي للذات المحمدية يعد في المقام الأول من الأهمية لتفهم الظاهرة القرآنية، إذ هو يمثل مفتاح المشكلة القرآنية حين نضعها على البساط النفسي للذات المحمدية3 ولنا أن نتساءل عن مدى التباعد والتقارب بين الذات المحمدية وظاهرة الوحي؟

مقام الذات المحمدية في ظاهرة الوحي : إن الظاهرة التي نحن بصددها ظاهرة في حالتها الأولى مرئية مسموعة، وقد تكرر السبب الحسي في الحوار4 المذكور ثلاث مرات مما استبعد أي احتمال للإختلاط أو الهلوسة، بل نحن مضطرون أن نقرر ازدواج الذات كأي حوار عادي، كما ينبي الحوار عن مدى التباعد بين الذات المتكلمة الآمرة الحازمة، والذات المخاطبة المضطربة المجفلة، وهو إجفال ينعكس عن طبيعة النبي الذي لا يعرف القراءة، فالفكرة النفسية الموضوعية هنا هي فكرة أميته5، وتتجلى لنا الذات المحمدية بوصفها شاهدا واعيا ومؤرخا صادقا للواقع الذي نحلله ... وفيما بعد وإلى النهاية فإن الذات المحمدية لن تتحدث مع الذات المتكلمة حين تخاطبها، وهذا الصمت في ذاته جدير بالملاحظة لأنه يسجل إدراك الرسول وموقفه النهائي أمام الظاهرة ليقف منذ ذلك الحين موقف التسليم6.

وأما الأمر الجلل الذي يسترعي الانتباه حقا؛ فهو انعدام الطابع الشخصي في الخطاب القرآني فلن نجد أي صدى لآلام الذات المحمدية، ولو أتيح لأحد من الناس أن يقرأه قراءة واعية لأدرك خلالها رحابة موضوعه فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية

1- ينظر المصدر نفسه، ص 175.

2 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 157 .

3- المصدر نفسه، ص 160

4 - الحوار (إقرأ) (ما أنا بقارئ) : عن عائشة رضي الله عنها قالت : " أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم... حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال : " اقرأ" ، قال ما أنا بقارئ، قال فاخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال : اقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال : " اقرأ"، قلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق ..." ...فرجع بها رسول الله ترجف بوادره..." حديث صحيح أخرجه البخاري (18/1-23) ومسلم (94/1 -98) من حديثها .

5- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 162

6- ينظر المصدر نفسه، ص165

إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق، بل إن هذه الذات لا تشغل إلا مكانا ضئيلا وإلا لكانت هذه الذات أولى بالحديث عن آلامها العظمى أو مسراتها من فقد للعم أو الزوج ...1

ولم ينس ابن نبي التمايز بين البنية القرآنية والحديث النبوي، فالعبارة القرآنية لها نسق وجرس تعرفه الأذن، ولها هيئة تركيبية وألفاظ خاصة، فليس من الخطأ أو الغلو في شيء أن يقال أن الأسلوب القرآني معجز لا يتسنى لأحد الإتيان بمثله2 ولهذا يكون الفصل القاطع التاريخي والنفسي بين الفكرة المحمدية والوحي القرآني وهو فصل مستقر في شعور النبي، والمتتبع للنص القرآني يلحظ مباشرة تميزه بنظمه البديع وهيئته المتكاملة مما يسلب العقل حقا ويثير الدهشة عما إذا كان هذا النص المعجز قد وصل إلينا هكذا جملة أو تفصيلا، فبالنسبة لمالك بن نبي فإن ظاهر النص القرآني هو أيضا ظاهرة تستدعي الدراسة والنقد وتتضمن جانبا يضفي تأكيدا آخر بالنسبة لمصدر هذا القرآن .

الخصائص الظاهرية للوحي : يذهب بن نبي إلى أن الوحي يتميز بخاصتين ظاهريتين هامتين؛ تنجيم الوحي، ووحدته الكمية3، فبالنسبة لظاهرة التنجيم؛ فإن الوحي يضم في مجموعه ثلاثة وعشرين عاما، فهو لا يكون ظاهرة مؤقتة أو خاطفة، ولقد نزلت الآيات منجمة بين كل وحي وما يليه.. ولا أدل على ذلك من حادثة الإفك التي لم يفصل فيها الوحي إلا بعد شهر، وهذا التنجيم في نزول القرآن ليبعث على التساؤل : ألم يكن من الممكن أن يتدفق جملة واحدة من العبقرية الإنسانية التي ربما يكون قد صدر عنها ؟

بداية يسوق ابن نبي القيم التربوية لمسألة تجزئة الوحي، حيث أنها في الواقع الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة في حقبة تتسم بميلاد دين وبزوغ حضارة، فكان بمثابة منارة تهدي سير النبي وأصحابه خطوة خطوة نحو الهدف البعيد خلال ثلاثة وعشرين عاما، يعزز جهودهم العظيمة ويدفع أرواحهم و إرادتهم نحو هدف الملحمة الفريدة في التاريخ ... فكان يأت لكل ألم بعزائه، ولكل تضحية جزاؤها، ولكل هزيمة أملها، ولكل نصر درسه في الإختتام4، فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام سرها هو التنجيم، فتحول بذلك إلى وثيقة حية تبعث الحياة في حضارة وليدة، ويبرز القرآن هذه الخاصة الخفية مخاطبا النبي بقوله : {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} (الفرقان 32) يعقب بن نبي قائلا : " ففي هذا النهج التربوي يستجلي لنا طابع العلم العلوي الذي أملى كلمة الله بطريقة التعليم"5 .

وعن الوحدة الكمية؛ فيقصد بها مجموع الآيات المتتابعة التي تسهم في اكتمال فكرة واحدة، إذ أن كل وحي مستقل يضم وحدة جديدة إلى المجموعة القرآنية، فإن للوحي مقياسا متغيرا، هو كميته أو سعته، تلك السعة التي تتراوح بين حد أدنى هو الآية وحد أقصى هو السورة، فتلك هي وحدة الظاهرة القرآنية من ناحية الكم، في أسلوب منطقي يمكننا ملاحظته في آيات القرآن6.

---

1 – مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 196.

2– ينظر المصدر نفسه، ص 172

3 – المصدر نفسه، ص 177

4– ينظر المصدر نفسه، ص 180 .

5– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 181.

6– ينظر المصدر نفسه، ص 188

ويدلل بن نبي بجملة من الأدلة على تناسق هذه الوحدة الكمية بأمثلة عدة منها؛ مثال الوحدة التشريعية في سورة النساء الآية1، ومثال الوحدة التاريخية في سورة المنافقون2... فالترتيب الدقيق الذي يتميز بالعمق واليقظة البالغة يتنافى كذلك مع الظروف النفسية والزمنية التي تبرق فيها الوحدة الكمية للقرآن حتى كأنما هي ومضة خاطفة، كما يتنافى مع الارتجال والتلقائية لأسلوب القرآن، إذ أن الخطاب القرآني من الناحية الشكلية يعد عرضا شفويا لا تظفر فيه الفكرة بالزمن المادي الكافي3 .

ومنه فالوحدة الكمية؛ تلك الومضة الروحية من الوحي تبرز في آيات القرآن دلائل ترتيب وتفكير وإرادة نعجز عن تفسيرها في حدود المعلومات التاريخية والنفسية التي أثبتناها للذات المحمدية4، وهذا عن التنسيق والتنظيم الظاهري للقرآن، أما عن جزالة لغته ومعانيه وبديع نظمه؛ فإن بن نبي لم يغفل هذا الجانب الأدبي أبدا، رغم أن الدراسات المحدثة لم تعد تأبه لهذا الجانب، حيث توجه التركيز نحو الجانب العلمي على غرار السمة الغالبة للعصر، أما مالك بن نبي فإنه يرى أنه لابد من الاهتمام بالجانب الأدبي ذلك أن القرآن لم يغفل الجانبين سواء الأدبي أو العلمي وعبر عن ذلك بـ (الصورة الأدبية للقرآن) .

الصورة الأدبية للقرآن : فالقرآن يؤكد صراحة سموه الأدبي الذي رآه ابن نبي إعجاز العبقرية الأدبية في عصره {وإن كنتم في ريبٍ مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله} (سورة البقرة الآية 23) وقد ظل هذا التحدي دون تعقيب، فلم يذكر التاريخ أن أحدا قد أجابه، فقد أفحم إعجازه عبقرية عصره، ولن ننسى بذلك تأثر عمر بن الخطاب، وقول الوليد بن المغيرة.. كما أن لغة القرآن ظاهرة خلقت من الوجهتين الأدبية واللغوية فصلا تاما بين اللغة الجاهلية واللغة الإسلامية، فالمسألة اللغوية التي أثارها القرآن تستحق في ذاتها دراسة جادة تضم ألفاظه الجديدة، واستخدامه الفذ للكلمات وخاصة في مجال الأخرويات5.

كما أحدث القرآن انقلابا هائلا في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير، حيث جعل الجملة المنظمة موضع البيت الموزون، وجاء بمفاهيم وموضوعات جديدة لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد، وهذه المفاهيم التي هضمها القرآن تمثلها وكيفها لتتناسب والعقلية العربية، ومن أمثلة ذلك كلمة (أيام الله) التي وردت في التعبير الإنجيلي بلفظ (ملك الله)، والأمر مس جل المفاهيم الإنجيلية الأخرى التي جاءت في القرآن باللسان العربي كروح القدس (Espritsaint)، والعزيز (putiphare)، وقد طال هذا التكييف الاشتقاقي الرائع جميع الثروة اللفظية التي جاء بها القرآن ليتمثل في صورة أكثر مطابقة لروح التوحيد الإسلامية، مع تجنب صعوبة الترجمة الصوتية 6 .

مضمون الرسالة : إن الفعل الإنساني ليقف حائرا أمام رحابة القرآن وعمقه، إذ هو بناء فريد ذو هندسة تتحدى المقدرة المبدعة لدى الإنسان، وهو يتغلغل في نفس المؤمن والكافر، يتجه نحو الماضي البعيد والمستقبل، ويرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة.. وغيرها مصدقا بالفعل قوله تعالى{مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ} (سورة الأنعام الآية 38)، وأي دارس

---

1 – مثال (سورة النساء الآية 22– 25) في المحرمات من النساء {وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ... } .

2 – مثال (سورة المنافقون الآية 1) : {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} .

3 – ينظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 188.

4 – المصدر نفسه، ص 188.

5– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 192

6– ينظر المصدر نفسه، ص 194

للقرآن ومتفحص لمواضيعه لا شك يصادف حديثا عن الكتب السابقة من توراة وإنجيل.. وغيره مما يثير التساؤل عن علاقة القرآن بها ولا سيما بالكتاب المقدس .

يؤكد القرآن صراحة على صلته بالتوراة والإنجيل، ومن ذلك قوله تعالى : {مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ} (سورة يونس الآية37) إلا أن هذه القرابة لها طابعها الخاص، فهو في كثير من المواضع يبدو مكملا ومصححا لمعلومات الكتاب المقدس، إلا أنه يحتفظ بصورته الخاصة في كل فصل من فصول الفكرة التوحيدية1، ويعقد بن نبي لإيضاح العلاقة العديد من المقارنات في العديد من المجالات كالأخرويات والكونيات والإجتماع وما وراء الطبيعة وتاريخ الوحدانية ...

ثم يعرض مالك بن نبي مجموعة من الموضوعات والمواقف القرآنية رأى أنها بصفة خاصة هي ما يميز هذا الكتاب (القرآن) عن عبقرية الإنسان، من ذلك : إرهاص القرآن والتصدير الذي يكون بمثابة التأكيد الاستهلالي في مطلع الوحي مما يدل على المعرفة السابقة الشاملة للموضوع2، وكذا ما لا مجال للعقل فيه كفواتح السور التي حيرت العقل الإنساني، رتلها الرسول هكذا، وهي فواتح لبعض السور دون الأخرى مما يدل على وجود تنظيم ضمني مقصود في كلام بهي معجز أدركته ذات واعية ويعد كاملا بحق3 .

إضافة إلى ما أشار إليه بن نبي من المناقضات؛ بين الميول والاتجاهات الطبيعية لدى النبي كحادثة الإفك، وكذا الموافقات؛ بين القرآن والعلم في أمور عدة لم تكن لتصدر عن بيئة بدوية لا علاقة لها بالعلم أصلا ... ومنها ما لم يكشفه العلم إلا مؤخرا رغم أن القرآن لا يسلك مسلكا علميا في خطابه، وهذا كله يجزم قطعا بغلط وجود معادلة بين الأفكار القرآنية والأفكار المحمدية، ويجعلنا نسلم بعلوية المصدر القرآني 4 .

وكذا المجاز القرآني وأهميته في دراسة الظاهرة القرآنية من وجهة نظر نقدية، ومنه مجاز عربي النوع المستنبط من بيئة النبي الصحراوية5، ولم يبق القرآن في تفسيره حبيس بيئته بل تعداها إلى أخرى منتزعة من بعض البلدان الشمالية في الكرة الأرضية، كالذي في قوله تعالى {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ...} (سورة النور الآية 24)، وأنى للنبي أن يعرف عن هذه الصورة حينها عن قاع البحر وجغرافية المحيطات وما تخفيه عنا البصريات الطبيعية ، وكل هذا دليل على أنها معارف لا يمكن أن تصدر إلا عن نبي 6 .

1- ينظر المصدر نفسه، ص 199

2 – مثاله : مطلع سورة يوسف : {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (سورة يوسف الآية 12) .

3- انظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 276.

4- المصدر نفسه، ص277، 282

5 – مثال قوله تعالى {(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (سورة النور الآية 39) .

6- مالك نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 296.

ولم يغفل ابن نبي القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن، ومن ذلك التخطيط النفسي والتشريعي الذي وضعه القرآن لأول مرة لمعالجة مشكلة الخمر، بعد أن شهد التاريخ على إسراف العرب في تعاطيها والمتاجرة بها1، ثم إننا نجد ابن نبي يوازن هذا التشريع الإلهي وآخر إنساني هو التشريع الأمريكي من أجل التحريم عام (1918/ 1919 م) حيث أعدت خطة للتنفيذ داخل الأراضي الأمريكية، فكانت النتيجة الفشل الذريع لأمر الحضر، ليعدل الدستور عام (1933م)، وهو ما سمي بـ (عهد التحريم) والخلاصة التي أقرها مالك بن نبي هنا أن : " الدين ظاهرة كونية تحكم فكرة الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها 2" .

سادسا: نتائج البحث

- أن الدين ظاهرة كونية لم تخل منها أمة في القديم أو الحديث، وهو يحكم فكر الإنسان وحياته بشكل فطري غريزي لا مناص من الاعتراف بدوره وأصالته في النفس البشرية.
- انطلاقا من كون النبوة حركة أثبت التاريخ تعاقبها وتكرارها عبر الزمن، وباعتبار الأنبياء هم صفوت الخلق خُلقا وخلقا وعقلا، فإن شهادتهم هي أول ما يعتد به لإثبات الظاهرة.
- رأى ابن نبي بضرورة إدراج بحث المصادر والوثائق المدونة التاريخية الدينية وعلى رأسها القرآن الكريم، الأمر الذي يبرز ثبوته أمام الدراسات النقدية عبر العصور.
- كما أنه لابد من معرفة الذات المحمدية، بل وإخضاعها لمقاييس عدة من أجل الإستيثاق الخلقي والعقلي لهذه الذات باعتبارها محل قضية الظاهرة القرآنية .
- إن يقين واقتناع النبي النهائي بالوحي يعد برهانا مباشرا على الظاهرة القرآنية، كما أن الحوار الفريد الذي استهل العهد القرآني (اقرأ – ما أنا بقارئ) حدد منذ البداية الوضع النسبي للذات المحمدية في الخطاب القرآني .
- يرى بن نبي أن خاصية تنجيم القرآن وفق الحوادث والمناسبات، هي الأنسب للتقويم والتعليم والتهذيب، تجلى من ورائها طابع العلم العلوي بحق، ولخاصية الوحدة الكمية، المتمثلة في تآلف مجموع الآيات وتناسقها فيما بينها، سرها في انتظام آي القرآن وأجزائه ووحداته.
- ولا مجال للشك في علاقة القرآن بالكتاب المقدس إلا أنها علاقة تصحيح أو إكمال، مع احتفاظ القرآن بصورته الخاصة ألا وهي الفكرة التوحيدية.
- أكد القرآن سموه الأدبي الذي أعجز العبقرية الأدبية البشرية مر العصور، وللقرآن أيضا من المواضيع والمواقف ما يرى بن نبي أنها بصفة خاصة هي ما يميزه عن عبقرية الإنسان؛ كالتصدير في فواتح السور، وإعجازه العلمي والأدبي، ناهيك عن منهجه التربوي الاجتماعي القويم الذي أخرج الناس طواعية من الظلمات إلى النور.

خاتمة

1- ينظر المصدر نفسه، ص 299.

2- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 300

وفي ختام عرضنا المتواضع لمعالجة الظاهرة القرآنية وإثبات علويتها من المنظور الفكري لمالك بن نبي يمكن القول أن المفكر سعى جاهدا لإثبات أصالة الظاهرة القرآنية، وعلوية مصدرها ولذلك أهمية بالغة بالنسبة للمسلمين ولغيرهم خاصة، وهو لم يتحرز أبدا في الدعوة إلى إخضاع القرآن كوثيقة للنقد والاستيثاق، وكذا النبي صلى الله عليه وسلم كوعاء لظاهرة الوحي .

وقد عمد ابن نبي بنفسه إلى دراسة الظاهرة القرآنية باعتبارها إحدى الظواهر الدينية المثبتة، ليقوم بتحليل ظاهرة النبوة بإجلاء سياجها ومقوماتها، وإثبات أنها ظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات البشرية وأنها اصطفاء مباشر من الله، يعد إقرار عقيدة التوحيد سمة وفيصلا في مجموعها .

أما عن الذات المحمدية، فقد استقى ابن نبي من سمات محمد (الرجل) شهادته على محمد (النبي) خصوصا حين يخبرنا عن موضوعية وحي الظاهرة القرآنية واستقلالها عن هذه الذات بالدرجة الأولى، ذلك أن المتتبع لحياة النبي؛ يتشكل في ذهنه بصفة تلقائية صورة نفسية متناسقة دائما ما تكمل بعضها لذات طبعت بالإخلاص المطلق والخلق العظيم، مما يجعل منها محلا جديرا بالثقة التامة المطلقة .

وقد سلط ابن نبي الضوء على شتى أصناف إعجاز القرآن منها اللغوي والأدبي وكذا العلمي والاجتماعي والتربوي .. مما يلفت النظر لثراء القرآن اللغوي الهائل ورحابة مواضيعه، وما أسفر عنه من أسرار علمية وكونية، ومناهج تربوية نفسية واجتماعية.. ولا شك أن ما نحى إليه ابن نبي له أهميته لدى المستقلون في الفهم، حيث يعزز مكانة القرآن بين المصادر والوثائق الدينية المدونة والتاريخية، ويبرز أصالة الإسلام وعقيدة التوحيد .

قائمة المصادر والمراجع :

- ابن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، ط1، بيروت : دار الفكر، 2013م
- ابن نبي، شروط النهضة، ط9، سوريا : دار الفكر، 2009م .
- دراز، محمد عبد الله، الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) الكويت : دار القلم .
- دراز، محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم، تر: محمد عبد العظيم، الكويت: دار القلم، 1984م
- رشيد رضا، محمد، الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط2، 1452هـ.
- الصابوني، محمد علي، النبوة والأنبياء، دار الصابوني، 1998م .
- عبد الوهاب، أحمد، النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، مكتبة وهبه .
- عبده، محمد، رسالة التوحيد، القاهرة، ط9، 1357هـ .
- الغزالي، محمد، فقه السيرة، الجزائر: دار رحاب، ط5، 1422هـ، 2001م .
- La rousse du x xeme siecle , article : Religion
- Eric William ,Heaton , the old testament prophets, 2nd edition, 2003
- Leblois, louis, Le coran et la Bible hebraique, L – fiscbbacher, 1887